أعلام الإسلام :

الامام ابن ابي العز الحنفي وتمسكه بالسنة

بقلم : د/ عاصم بن عبد الله القريوتي
الأستاذ بكلية الحديث بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلامضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد :

فمقالتي هذه عن علم من أعلام المسلمين ألا هو الإمام العلامة القاضي الفقيه صدر الدين على بن على بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الاذرعي الصالحي الدمشقي .

أقول : أشار الحافظ ابن حجر في الدر الكامنة إلى تسميته محمداً كما وقع في شذرات الذهب ولكنه قال : الصواب علي .

وكماجاء في بعض مصادر ترجمته ابن العز .

وأما ولادته فولد عام واحد وثلاثين وسبعائمة هـ واشتغل بالعلوم وكان ماهراً في دروسه وفتاويه وخطب بحسبان قاعدة البلقاء مدة ثم ولي قضاء مصر فأقام فيها شهراً ثم استعفي ورجع إلى دمشق .

وكان العلامة ابن أبي العز ذا عقيدة صافية راسخة وصريحاً في رأيه المستمدّ من كتاب الله وسنة رسوله صلىالله عليه وسلم كما هو شأن العلماء الربانيين الأمر الذي امتحن لأجله عام أربع وثمانين وسبعمائة لصلابته في العقيدة ولدفاعه عنهاكما هو الواجب المنوط

بعلماء الأمة فحبس لذلك بالعذراوية. ثم نقل إلىالقلعة بدمشق ثم أخرجت وظائفه وبقي معتقلا إلى شهر ربيع الأول من السنة المقبلة .

وللعلامة ابن أبي العز مصنفات جليلة القدر تدل على سعة علمه واطلاعه وغيرته على دين الله عزوجل . والذي وقفنا علىذكره من تأليفه :

١ـ التنبيه على مشكلات الهداية في الفقه الحنفي.

٢ ـ النور اللامع فيمايعمل به في الجامع ـ أى جامع بني أمية .

٣ـ شرح العقيدة الطحاوية . طبع مرات بمكة ، ثم بمصر، ثم ببيروت، ثم بمصر .

٤ ـ الإتباع : طبع بتحقيق الشيخ العلامة محمد عطاء الله حنيف ومشاركة كاتب هذه السطور.

٥ ـ رسالة في اقتداء الحنفي بالشافعي . مخطوطة بالمغرب .

ومن هذا السرد لمؤلفاته يظهر مدى غيرته على دين الله عزوجل وعلى الفرقة التي بين المسلمين ووجوب العودة إلى عقيدة سلف الأمة وكما يظهر مدى اسهامه في وحدة الكلمة امتثالا لقوله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا ﴾ .

وعنايته بعقيدة سلف الأمة تتجلى في شرحه العظيم لعقيدة الإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الشهيرة بالعقيدة الطحاوية . فاستفاد ابن أبي العز من وارث علم الصحابة والتابعين شيخ الاسلام أحمد بن تيمية الذي أغنى المكتبة الإسلامية بمصنفاته وأبحاثه في علوم شتى وخاصة فيما يتعلق بتوحيد الله عزوجل وكما استفاد من تلميذ شيخ الاسلام الإمام المحقق ابن القيم الجوزي رحمه الله جميعهم ولقد أبان ابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية أن سبيل أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة في أسماء الله وصفاته هو التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه كيف لا وهو منهج الأنبياء ومنهج صحابة رسول الله صلىالله عليه وسلم ومنهج تابعيهم ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه الشيخان عن ابن مسعود

رضي ا الله عنه :

" خيرالناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " .

ثم بين أن المعطلة يعرضون عما قاله الشارع الحكيم من الأسماء والصفات ولا يتدبرون معانيها ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده .

وأما أهل السنة والإيمان فيجعلون ما قال ا الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده.

وكما رد على المنحرفين في العقيدة الذين اتخذوا قواعد وفرضياتٍ أصبحوا يحكمون بها علىالكتاب والسنة بينما الواجب أن يحكم بالكتاب والسنة عليها وعلى جميع أمورهم إذ هذا الطريق في فهم العقيدة هو الأسلم والأعلم والأحكم لاطريق من تأثر بفلاسفة اليونان وغيرهم إذ هي لاتروي غليلا ولا تشفي عليلا كما قال أحد من ابتلى بمنهج الخلف ثم عافاه ا الله منه وقرر أن أقرب الطرق طريق القرآن. وعناية ابن أبي العز في وجوب الإعتصام بالكتاب والسنة والنهي عن التفرق والتعصب لطائفة دون أخرى أو لمذهب دون آخر تتجلى في كتابيه " الإتباع " و" رسالة في اقتداء الحنفي بالشافعي" إذ حث علىالاعتصام ونهى عن الفرقة وذكر بعض صورها وقرر أنه لايتعصب لواحد من الأئمة دون الباقين من الأمةكما لا يتعصب لواحد من الصحابة دون الباقين كما هو شأن بعض أهل الأهواء فهذا رفض وتشيع لكنه في بعض الطوائف والعلماء لا في تفضيل بعض الصحابة . إذ الرسول صلى ا الله عليه وسلم يقول في شأن الغلامين الذين اقتتلا من المهاجرين والأنصارعند ما نادىالمهاجري ياللمهاجرين ونادى الأنصاري ياللأنصار ما هذا دعوى اهل الجاهلية. وفي رواية دعوها فإنها منتنة رواهما مسلم في صحيحه.

وكما بين أن تفضيل شخص على شخص من العلماء ليس منصوصا عليه ولامجمعا عليه وغالبُ الخائضين فيه إنما يتكلمون بهوى وتعصب كما أن الحق ليس وقفا علىواحد منهم والخطأ وقف بين الباقين حتى يتعين اتباعه دون غيره وإنماطريقة الصحابة والتابعين أهل

القرون الثلاثة المفضلة رد المتنازع فيه إلى الله والرسول ولم يكن فيهم من يأخذ بقول واحد معين دون غيره غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي طريقة التابعين لهم باحسان إلى يوم الدين لقوله تعالى :

﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ﴾.. والأئمة مأجورون في اجتهاداتهم فإن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطا فله أجر" رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه . وكما أن يجب أن نلتمس للأئمة الكرام الأعذار في مخالفتهم للنصوص على ما حرره شيخ الإسلام ابن تيمية في " رفع الملام عن الأئمة الأعلام " هذا الكتاب الذي قال فيه العلامة القاسمي إنه لوكان بالصين جدير بأن يرحل إليه .

وما أجمل قول الإمام أبي جعفر الطحاويّ في عقيدته :

" وعلماء السلف من السابقين، و من بعدهم من التابعين، أهل الخبر والأثر وأهل الفقه والنظر، لايذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل "

وكما قرر ابن ابي العز، أن الواجب على من طلب العلم النافع أن يحفظ كتاب الله ويتدبره وكذلك من السنة ما تيسر له ومن اللغة والنحو ما يصلح به كلامه ويستعين به على فهم الكتاب والسنة، وكلام السلف الصالح في معانيها ثم ينظر في كلام العلماء والصحابة، ثم من بعدهم، ما تيسر له من ذلك من غير تخصيص، فما اجتمعوا عليه لايتعداه، وما اختلفوا فيه نظر في أدلتهم بغير هوى ولاعصبية، ثم بعد ذلك ﴿ من يهد الله فهوالمهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ .

هذا وكانت وفاة العلامة ابن أبي العز عام اثنين وتسعين وسبعمائة للهجرة رحمه الله وجزاه خيراً .

﴿ ربنا اغفرلنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا إنك رؤوف رحيم ﴾ .

☆ ☆ ☆